سلطان الأطرش والثورة السورية الكبرى

بمناسبة ذكرى غياب سلطان باشا الاطرش هنا دراسة عنه اعدها المجلس الدرزي للبحوث والانماء.

نشا سلطان باشا الاطرش في جبل الدروز في بيئة قاسية شهدت الكثير من مظالم العهد العثماني. ولعل اقربها الى ذهن سلطان حملة سامي باشا الفاروقي التي جردها العثمانيون على جبل الدروز في العام ١٩١٠ والتي اسفرت عن قتل عدد من زعماء الجبل غدرا ومن بينهم ذوقان الاطرش والد سلطان. لقد كان سلطان الاطرش يومذاك يافعا عندما شهد بام عينه بعض تلك المظالم وعرف الكثير عن سياسة العثمانيين الغاشمة في موطنه. فلا يعجبن المرء ان رأى جبل الدروز يومذاك اول مقاطعة عربية ترفع راية التحرر من الحكم العثماني اذا انضم عدد من ابنائه الى تلك الجمعيات والاحزاب الوطنية والقومية التي قامت تطالب بالحرية والاستقلال للمقاطعات العربية الواقعة تحت الحكم التركي. كما كان جبل الدروز قبيل الحرب الكبرى وخلالها الملجأ الامين لعدد من رواد القومية العربية وشهدائها ومن بين هؤلاء عبد الغني العريسي وتوفيق البساط وعمر حمد وعارف الشهابي. وكم من مرة حاول العثمانيون النيل من هؤلاء من دون جدوى.

ثورة الشريف حسين

وعندما قامت ثورة الشريف حسين لتجسد اماني العروبيين في الوحدة والاستقلال اظهر الدروز في جبل حوران كما يقول الدكتور انيس الصايغ في كتابه «الهاشميون والثورة العربية الكبرى» «حماسا واضحا للثورة العربية». والتحق بعض الشباب القادة كفؤاد سليم في صفوف الثورة في الحجاز. والواقع ان اكثرية سكان جبل الدروز بادرت الى دعم الثورة ضد الاتراك من اجل قيام دولة عربية مستقلة. وكان يتزعم هذه الاكثرية سلطان الاطرش الذي وجدت فيه القيادات العاملة في الثورة زعيما كفؤا لقيادتها. وقد احبطت هذه الفئة الوطنية خطة جمال باشا لمهاجمة الشريف زيد الذي قدم يومذاك من الحجاز الى واحة الازرق من اجل اثارة القبائل العربية هناك ضد العثمانيين وللاتصال بالعاملين للثورة في انحاء بلاد الشام.

لقد ابدى الوطنيون في جبل الدروز وعلى راسهم سلطان الاطرش استعدادهم للدفاع عن الامير وحمايته مما احبط مخطط الاتراك هذا. واستضاف هؤلاء الوطنيون في جبل الدروز المجاهد نسيب البكري رسول الامير فيصل الى الجبل في مطلع الثورة. وفيما اضطر البكري للتخفي من وجه سلطان الاتراك هناك اذا بالشهيد حمد البربور يسارع لنقله الى قرية ام الرمان ويستدعي الحاكم التركي في المنطقة ليرى رسول الامير فيصل ويشهد بام عينه رفع العلم العربي في دار الشهيد تحديا لسلطة الاتراك. وايذانا ببدء الثورة العربية.

كان سلطان الاطرش قد اعلن بدوره الثورة على العثمانيين. وبلغ حماس دروز الجبل للثورة حدا قل مثيله يومذاك في سائر البلدان العربية اذ تشكلت على الفور قوة من رجال الجبل بلغت بضعة الاف كان من ابرز قادتها حمد البربور واسد الاطرش قطعت القفار الى العقبة مقر الامير فيصل لتسير في طليعة مواكب الثورة العربية الى بلاد الشام. وعندما وصلت طلائع الثورة العربية الى منطقة حوران خفت بضعة آلاف من ابناء الجبل بقيادة سلطان الاطرش لملاقاة الامير فيصل. واشترك سلطان الاطرش يومذاك في معركة الدير على حيث هزم رضا باشا الركابي وكان في طليعة القوات العربية التي دخلت دمشق ليرفع احد رجاله من آل طربيه اول علم عربي في احدى ساحاتها الرئيسية (ساحة المرجة)(١).

ولم تقتصر مساهمة سلطان الاطرش في الثورة العربية التي قادها الامير فيصل عند هذا الحد بل تعداها للقيام بكل ما يعرقل تحرك العثمانيين في منطقة حوران فارسل ثلاثمئة من رجاله يناوشون الاتراك على طريق الحجاز كما عمل على قطع طريق تموين القوات العثمانية في تلك المنطقة. وعندما وقعت المجابهة بين الفرنسيين وقوات الجيش العربي في ميسلون ارسل سلطان الاطرش قوة من المتطوعين لنجدة الجيش العربي. الا ان تلك القوة لم تصل الى بصر الحرير الا وكانت القوات الفرنسية قد انتصرت على جيش الامير فيصل وتقدمت الى دمشق واحتلتها.

قرر سلطان الاطرش اثر تلك الحادثة بالمبادرة من الشهيد حمد البربور نقل عاصمة الدولة العربية الى السويداء وبعث يدعو الملك فيصل الى عاصمة الجبل ليشكل فيها حكومة المقاومة العربية ولكن الرسول لم يدرك الملك فيصل بسبب سفره الى اوروبا.

وهكذا كتب على سلطان الاطرش الذي شهد ماساة سقوط حكومة فيصل العربية امام ضغوط قوى الاستعمار الاوروبي ان ينتظر بضع سنين اخرى ليقوم بنفسه بتفجير ثورة عربية ضد الانتداب الفرنسي. وكان عليه ايضا انتظار بعض التحول على الصعيد الدولي خصوصا بعد اصرار دول الحلفاء على تطبيق بنود اتفاقية سايكس ـ بيكو بشان تجزئة المشرق العربي بين بريطانيا وفرنسا. وما ان قرر الحلفاء في مؤتمر سان ريمو منح فرنسا حق الانتداب على سوريا ولبنان حتى وضعت الحكومة الفرنسية خطة للسيطرة على هذه البلدان عن طريق التجزئة الاقليمية والطائفية. وشرعت بعد احكام سيطرتها العسكرية على سوريا بتطبيق سياسة التجزئة هذه على اوسع نطاق فاقامت اربع دول في كل من حلب وجبل العلويين ودمشق وجبل الدروز. وارسلت فرنسا عددا من موظفيها المشبعين بالروح الاستعمارية فاساؤوا معاملة سكان البلاد المنتدبة ومنهم دروز الجبل. واخذ الناس يتذمرون من دوائر الاستخبارات وسياسة الرشوة وقمع الحريات والنفي والتشريد لكل وطني طالب بحرية بلاده واستقلالها. اما في جبل الدروز فقد عملت السلطات الفرنسية لعقد اتفاقية مع بعض الوجهاء عرفت باتفاقية ابو فخر ـ دي كي قضت باقامة حكومة مستقلة داخليا يراسها حاكم وطني ينتخبه الاهالي مرة كل ثلاث سنوات. ونص احد بنود تلك الاتفاقية بانه لا يحق لفرنسا ان تتدخل في شؤون الجبل الداخلية ولا تجنيد الاهالي ولا نزع سلاحهم.

كان سلطان الاطرش يومذاك بين اكثرية دروز الجبل الذين رفضوا هذه الاتفاقية وطالبوا بالاتحاد والاستقلال مع بقية اجزاء البلاد السورية(٢). ولكن السلطات الفرنسية استطاعت آنذاك ان تفرض نفسها بقوة السلاح وكان على سلطان الاطرش ان ينتظر الظرف المناسب للوقوف في وجه الانتداب الفرنسي. والتف الناقمون والمعارضون حوله فيما كان حتى ذلك الحين يراقب التطورات بصمت على رغم معارضته المبدئية للانتداب الفرنسي. ولكن حادثة ادهم خنجر الشهيرة جعلته يقوم بانتفاضته الاولى ضد الفرنسيين فمهدت تلك للثورة الكبرى في العام ١٩٢٥.

وليس من حاجة في هذه العجالة لذكر تفاصيل حادثة ادهم خنجر التي شوه روايتها الكثيرون من الكتاب والمؤرخين. لقد كان ادهم خنجر كما هو معروف احد المتهمين بمحاولة اغتيال الجنرال الفرنسي غورو ومن بين الذين اشتركوا بحرب العصابات ضد الفرنسيين ولهذا حكم عليه بالاعدام من قبل السلطات المنتدبة. فلما حاول الفرنسيون القاء القبض عليه التجا الى دار سلطان الاطرش مستنجدا به. ولكن سلطان الاطرش كان يومذاك غائبا عن داره. فخرقت السلطات الفرنسية حرمة بيته والقت القبض على ادهم خنجر. واذ عاد سلطان الى منزله وعرف بالامر طلب من مستشار حكومة جبل الدروز الكابتان كاربيه تسليمه ضيفه فرفض كاربيه طلبه. غير ان سلطان الاطرش لم يرض بهذا التحدي الفرنسي لتقاليد الضيافة في الجبل بل ابرق للمفوض السامي الفرنسي يطلب منه التدخل لاطلاق سراح ضيفه ومما قاله في برقيته يومذاك: «ان موتي واهانة ضيفي سيان في عوائد السوريين. الرجل يطلب مني ان اتوسط له عفوا من فخامتكم. انقذا لشرفي ووطني»(٣).

بيد ان السلطات الفرنسية لم تستجب لطلب سلطان فقرر عند ذاك قطع الطريق على اية محاولة لنقل ضيفه خارج الجبل.

وعندما ارسلت السلطات الفرنسية سيارتين مصفحتين لنقل ادهم خنجر الى دمشق هاجم سلطان الاطرش مع ثلة من رجاله المدرعين فحطم احداها وتمكنت الثانية من الفرار وهي تطلق نيران رشاشاتها. فلما بلغ السلطات الفرنسية ما جرى ارسلت طائرة الى السويداء لنقل السجين جوا الى دمشق. اما سلطان الاطرش فقد قال باباء: «لا حيلة لنا في السماء اما في الارض فاننا مستعدون لبذل ارواحنا في سبيل كرامتنا».

بيد ان موقف سلطان هذا دفع السلطات الفرنسية لتجريد حملة عسكرية على الجبل فضربت الطائرات الفرنسية بلدة سلطان وهدمت منزله واخذت تقصف كل قرية تمر فوقها مما ادى الى قتل عدد من الابرياء. وصادرت السلطات الفرنسية الاغلال والمواشي واحرقت البيادر انتقاما. واضطر سلطان ورفاقه للذهاب الى شرقي الاردن. وبقي سلطان هناك حوالي سنة يترقب مساعدة الوطنيين العرب لشن حرب عصابات ضد قوات الانتداب الفرنسي من دون جدوى. بيد ان السلطات الفرنسية خشيت في الواقع قيام ثورة ضدها عن طريق شرقي الاردن فسارعت الى اصدار امر بالعفو عن سلطان الاطرش ورجاله فرجع الى السويداء ليلقى استقبالا وطنيا رائعا(٤).

بيد ان العفو الذي منحته السلطات الفرنسية لسلطان لم ينه معارضته المبدئية للانتداب الفرنسي وظل يعمل في صفوف المناضلين من اجل حرية واستقلال البلاد العربية. ثم جاءت اعمال كاربيه الشائنة. وهو المستشار الفرنسي في جبل الدروز. لتهيء الاجواء الملائمة للثورة الكبرى. وكان كاربيه قد انتزع حاكمية الجبل بعد وفاة الامير سليم الاطرش وحصر بيده جميع السلطات.

وشرع كاربيه بمعاملة الناس بقسوة وفظاظة. فضايق الطرشان ومنع الناس من دخول دورهم وتشييع جنائزهم وقيد حرية الدخول والخروج من الجبل واودع العديد من الزعماء الوطنيين السجن من دون محاكمة وتعرض بعضهم للتعذيب، ومنع الاجتماعات الكبرى في الجبل وسخر الناس للعمل في الطرقات وتدخل في شؤونهم الخاصة والعامة(٥).

لا شك بان هذه المظالم خلقت نوعا من الحقد في قلوب سكان جبل الدروز ضد الحكم الفرنسي حتى اصبحت نفوسهم مهيأة للثورة. ولكنهم حاولوا في البداية ازالة تلك المظالم بطرق سلمية فطالبوا باقالة الحاكم الفرنسي كاربيه. واخذ سلطان الاطرش يثير الهمم للوقوف في وجه الحاكم الفرنسي. وقاموا اولا بتظاهرة في السويداء عاصمة الجبل ضد كاربيه واعوانه غير ان الفرنسيين قمعوها بشدة. ولكن بعض المتظاهرين تصدوا للضابط الفرنسي موريل الذي قمع التظاهرة وضربه احدهم على انفه فيما اطلق احد المتظاهرين وهو حسين مرشد عيارا ناريا على الضابط المذكور من دون ان يصاب باذى.

اثار هذا الحادث حفيظة الحاكم الفرنسي فتحرك لانقاذ الموقف وطلب من اهالي السويداء دفع مبلغ مئتي ليرة ذهبية كغرامة لاهانة الضابط الفرنسي كما طلب عددا من الرهائن من ابناء وجوه البلدة كضمانة لعدم تكرار الحادث السابق كما امر بهدم منزل الشاب الذي اطلق النار فهاج سكان البلدة وماجوا لمنع ذلك الاجراء.

بيد ان السلطات الفرنسية سارعت في الظاهر لتهدئة الخواطر فاقالت الضابط الفرنسي وعينت مكانه ضابطا آخر ولكنها كانت في الوقت ذاته تضع خطة لالقاء القبض على زعماء المعارضة وارسالهم الى المنفى. واستغل الضابط الجديد مناسبة عيد الحرية الفرنسي لدعوة زعماء الدروز المعارضين الى احتفال اقامه في تلك المناسبة والقى القبض على الذين حضروا وارسلهم مخفورين الى دمشق. اما سلطان الاطرش الذي كان من بين المدعوين الى ذلك الاحتفال فقد تغيب عن قصد ونجا من المكيدة(٦).

إعلان الثورة

إلا ان هذه الحادثة كانت النقطة التي طفح بها الكيل ودفعت سلطان الاطرش لاعلان الثورة ضد الانتداب الفرنسي في قرية صلخد حيث هاجم مع رجاله سرايا الحكومة هناك واحتلها. عندها تحركت السلطات الفرنسية على الفور للاجهاز على انتفاضة سلطان في مهدها وجهزت حملة بقيادة الضابط الفرنسي نورمان الا ان سلطان ورجاله تصدوا لتلك الحملة في قرية الكفر والتحموا مع الجنود الفرنسيين بالسلاح الابيض بحيث لم يستطع افراد الحملة استعمال اسلحتهم الثقيلة ولا الرشاشة وابادوا تلك الحملة في اقل من ساعة

حملة الجنرال ميشو

بيد ان سلطة الانتداب لم تتهاون بالامر بل جهزت حملة جديدة يفوق عددها وعدتها قوات الثورة اضعافا مضاعفة وشملت عدتها ستة مدافع كبيرة وثلاث بطريات من المدافع الصغيرة وعشر مصفحات يساندها سرب من الطائرات المقاتلة بقيادة الجنرال ميشو. الا ان سلطان الاطرش ورجاله وقفوا لهذه الحملة الضخمة بالمرصاد وانقضوا على الجنود الفرنسيين والتحموا معهم بشكل افقد الطائرات والمدفعية فاعليتها واجبروا الحملة على التراجع بعدما كبدوها خسائر جسيمة في الارواح والمعدات. لقد كانت تلك المعركة عبارة عن ساعات رهيبة تجندل خلالها مئات القتلى وتكدست على الطرقات جثث الخيل وبقايا المعدات والعربات المعطلة حتى سدت طرق المدرعات ولم ينج من سلاح الا ثلاث مصفحات حملت احداها قائد الحملة نفسه الذي كان من بين الجرحى(٧).

كانت معركة المزرعة التي حاولت المصادر الفرنسية التقليل من اهميتها ضرباً رائعاً من البطولة التي لا يزال المعمرون يذكرون نوادرها ومنها الهجوم على المدرعات وهي سائرة وقلبها بالاكتاف. بيد ان النتائج السياسية لهذه المعركة لم تكن توازي النتائج العسكرية. فعلى الصعيد العسكري تمكن الثوار في جبل الدروز وفي ظل قيادة سلطان الاطرش من طرد قوات الانتداب من جبل الدروز ولكنهم لم يلاحقوا فلول الجيش الفرنسي ابعد من ذلك خلال هذه المرحلة اذ لم يستطع قادة الثورة حتى ذلك الحين التنسيق مع سائر الوطنيين في انحاء بلاد الشام للقيام بثورة مماثلة في اماكن اخرى. الا ان نجاح الثورة في جبل الدروز ايقظ روح التمرد ضد الانتداب الفرنسي في سائر انحاء سوريا ودفع زعماء الحركة الوطنية في دمشق وجوارها للمشاركة في اعمال الثورة. اما سلطات الانتداب فقد تنبهت للخطر المحدق بها وحاولت استيعاب الثورة الدرزية عن طريق المفاوضات. وبدات المفاوضات بين الفريقين وابدى الفرنسيون في اثناء تلك المفاوضات تجاوبا غير متوقع مع شروط الثوار بشان مطالب سكان الجبل المحلية.

وكان بمقدور سلطان الاطرش لو كان يهدف من ثورته هذه للحصول على مكاسب محلية او فئوية ان يحقق تلك الاهداف عن طريق المفاوضات وهذا ما تؤكده مختلف المصادر المحلية والاجنبية. الا ان هدف سلطان الاطرش من المفاوضات كان في الحقيقة يرمي الى كسب الوقت ريثما تمد القوى الوطنية والقومية الاخرى في مختلف انحاء سوريا يدها للثورة الدرزية لتصبح ثورة شاملة تستطيع طرد الفرنسيين وتحقيق هدفها في الوحدة والاستقلال. وعندما بدا لسلطان الاطرش ان القوى الوطنية في دمشق اصبحت مستعدة لمساندة ثورته والمساهمة الفعلية في اعمالها العسكرية، لم يتردد بقطع المفاوضات مع الفرنسيين واستئناف القتال ضدهم. وكان سلطان الاطرش قد استقبل في هذه الاثناء وفدا من زعماء دمشق يمثلون حزب الشعب فيها واتفق مع اعضاء الوفد الدمشقي بان تثور دمشق مبديا استعداده للزحف اليها بعد اسبوع شرط ان يخرج ثوار المدينة لملاقاته ويقوموا معا بهجوم عام على دمشق من اجل طرد الفرنسيين منها(٨).

امتداد نيران الثورة

بموجب هذا الاتفاق اخذت الثورة التي بداها سلطان الاطرش في جبل الدروز تنتشر في اماكن اخرى لتشمل اهدافها سوريا بكاملها. وقد حدد سلطان الاطرش تلك الاهداف في بيان عام اذاعه في شهر آب من تلك السنة جاء فيه(٩):

«يا احفاد العرب الاماجد. هذا يوم ينفع المجاهدين فلننهض من رقادنا ولنبدد ظلام التحكم الاجنبي عن سماء بلادنا... ان المستعمرين نهبوا اموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا واقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد وقسمونا الى شعوب وطوائف ودويلات وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا واقليمنا». ثم يفصل البيان اهداف الثورة كما يأتي:

«١ ـ وحدة البلاد السورية، ساحلها وداخلها والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً

٢ ـ قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التاسيسي لوضع قانون اساسي على مبدأ سيادة الامة سيادة مطلقة.

٣ ـ سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتاليف جيش محلي لصيانة الامن

٤ ـ تاييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الانسان في الحرية والمساواة والإخاء».

سلطان الاطرش

ويدعو البيان الى الجهاد في سبيل تحقيق هذه المطالب بالقول: «لقد مضت علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد ان سكت القلم ولا يضيع حق وراءه مطالب.

ايها السوريون لقد اثبتت التجارب ان الحق يؤخذ ولا يعطى فلناخذ حقنا بحد السيوف ولنطلب الموت توهب لنا الحياة».

ويمكن اختصار ذلك البيان بان الهدف الاساسي للثورة هو طرد الفرنسيين واعلان دولة سورية عربية موحدة ومستقلة

وفي البيان رفض قاطع لكافة اشكال التجزئة التي حاول ان يفرضها الانتداب الفرنسي على بلاد الشام مؤكداً على ان جميع الخلافات والفروقات الاقليمية والمذهبية والطائفية يجب ان تزول امام الرابطة القومية. وهذا ما اكده سلطان الاطرش في بيان آخر اذ قال: «لا تنافس في الاهواء ولا خصومات ولا احقاد طائفية انما نحن امة عربية سورية. امة مستضعفة قوية في الحق قد تنبهت الى المطالبة بحقها المهضوم امة عظيمة التاريخ نبيلة المقاصد. امة تريد الحياة. والحياة حق طبيعي وشرعي لكل الامم التي قسمها الاستعمار الاجنبي فوحدتها مبادىء حقوق الانسان. نعم ليس هنالك درزي وسني وعلوي وشيعي ومسيحي. ليس هنالك الا ابناء امة واحدة وتقاليد واحدة ومصالح واحدة. ليس هنالك إلا عرب سوريون»(١٠).

واذا استطاعت جماهير جبل الدروز تلبية نداء قائد الثورة واستعدت للزحف الى دمشق في الوقت المحدد لها. فان السلطات الفرنسية عملت على تطويق اي تحرك في هذا الاتجاه والقت في اليوم التالي القبض على عدد من زعماء حزب الشعب. ولما تقدمت قوات الدروز باتجاه دمشق وهي مكشوفة امام سلاح الطيران تعرضت لقصف الطائرات الفرنسية وتكبدت خسائر جسيمة ولم يصل منها الى دمشق الا نحو مئة خيال. كما وان توانى الدمشقيين عن مساندة الثوار في الوقت المحدد جعل الثورة تفشل في السيطرة على المدينة.

موقعة المسيفرة

بيد ان فشل الثوار في دخول دمشق شجع السلطات الفرنسية على المضي قدما في مهاجمة الثوار الدروز في الجبل واستطاعت ان تجرد حملة ضخمة بقيادة الجنرال غملان وان تستدرج الثوار الى سهل المسيفرة المكشوف فتوقع في صفوفهم خسائر جسيمة في الارواح. وتذكر المصادر ان سلطان الاطرش لم يوافق الثوار على شن الهجوم على بلدة المسيفرة او القتال في سهلها المكشوف ولكن حماسة الثوار واندفاعهم اوقعهم في ذلك الخطأ الجسيم

واستغل الفرنسيون نتائج معركة المسيفرة لتضييق الحصار على بلدة السويداء واحتلال جبل الدروز من جديد. ونجحوا في التقدم نحو قلعة السويداء ولكنهم تراجعوا امام تطورات سياسية جديدة طرأت على مسيرة الثورة. اذ تمكن سلطان الاطرش من اجراء اتصالات سرية مع العديد من الزعماء الوطنيين في انحاء اخرى من البلاد الشامية للقيام بتحرك ما من شأنه تخفيف الضغط عن الثورة في الجبل وكانت ثورة حماه بقيادة المجاهد فوزي القاوقجي اولى تلك الاستجابات الثورية لنداء سلطان الاطرش. وعلى رغم فشل الثوار هناك بسبب القصف العنيف الذي تعرضت له المدينة من الطائرات الفرنسية فان ثورة حماه شجعت الوطنيين في الغوطة على التحرك بدورهم لدعم الثورة. ولكن السلطات الفرنسية عمدت الى قصف مدينة دمشق بضراوة الامر الذي لقي استنكاراً دولياً واسعاً. الا ان الثورة بقيت ناشطة في قرى الغوطة بعدما ارسل قائدها سلطان الاطرش نجدة من ثوار جبل الدروز لمساندة الدمشقيين في الغوطة. وبلغت تلك النجدة قرية الخيارة وكان في عدادها زيد الاطرش وحمزة الدرويش وعلي عامر وزيد عامر ومحمود كيوان وشكيب وهاب وفؤاد سليم واخوه نصري(١١).

الثورة في اقليم البلان ووادي التيم

في هذا الوقت بالذات شجع سلطان الاطرش في توسيع رقعة الثورة لتشمل منطقتي اقليم البلان (السفح الشرقي لجبل الشيخ) ووادي التيم. اذ استجاب الدروز في تلك المناطق لنداء قائد الثورة وناهضوا سلطة الانتداب في كل من مجدل شمس وحاصبيا وراشيا. وسيطر الثوار على هذه الاماكن باستثناء قلعة راشيا التي استهان بها الثوار ولم يعملوا على تصفية جيوب المقاومة الفرنسية فيها. ودفعت الثورة ثمناً غالياً لهذا التهاون بعدما نجح الفرنسيون في ارسال قوة كبيرة لنجدة جنودها المحاصرين في القلعة فيما كان الثوار مشتتون وبقي القليل منهم لصد الهجوم الفرنسي المباغت. ولم تصلهم النجدة التي ارسلت بقيادة متعب الاطرش وعلي عبيد في الوقت المناسب مما جعل البلدة تسقط بيد الفرنسيين الذين انتقموا من الاهالي.

بيد ان اخفاق الثوار هذا في راشيا وقبلها في حوران كان بداية الانتكاسة في مسيرة الثورة الوطنية. اما السلطات الفرنسية فلم تتهاون بالامر بل عملت على استبدال الجنرال سراي المفوض السامي العسكري برجل مدني اكثر ليونة هو دو جوفنيل. ورأى هذا ان من مصلحة الفرنسيين التفاوض مع قادة الثوار قبل ان يتسع نطاق الثورة لتشمل انحاء جديدة فيصعب على الفرنسيين التغلب عليها. لقد كان العرض الفرنسي هذا للتفاوض بمثابة كسب للوقت بحيث يتمكن الفرنسيون خلال هذه الفترة من استقدام قوات جديدة واضافية لتحسين وضعهم العسكري. وعرض جوفنيل على قادة الثورة معالجة النزاع بشكل اقليمي واقترح حلا منفردا لمسالة جبل الدروز.

ولكن سلطان الاطرش رفض العرض الفرنسي هذا واصر على معالجة المسالة السورية بكاملها معلنا للمفوض السامي انه لا يفرق بين سوريا وجبل الدروز بل يعتبرهما بلاداً واحدة(١٢).

والواقع ان الفرنسيين لم يكونوا على استعداد لتلبية مطالب سلطان هذه بل لجأوا الى طرح عدد من الحلول الفئوية والاقليمية من اجل تشتيت قوى الثورة الوطنية وتشويه اهدافها. وما تركيز الفرنسيين على دروز الجبل سوى محاولة جديدة لفصلهم عن تراثهم القومي العربي بحيث يمكن عزلهم عن بقية المناطق السورية فيسهل اذ ذاك عليهم القضاء على الثورة في الاماكن الاخرى.

لقد كان سلطان الاطرش يعي حقيقة المخطط الفرنسي هذا فتصدى بكل قواه لهذا المخطط رافضا جميع المحاولات لاعطاء ثورته طابعاً فئوياً او اقليمياً. ووجه مع بقية قادة الثورة رسالة للمندوب السامي الجديد يؤكد فيها انه لن يلقي الثوار سلاحهم الا بعد اعتراف فرنسا باستقلال سوريا واعادة توحيدها وانسحاب القوات الفرنسية وقبولها دولة في عصبة الامم(١٣).

كان من الطبيعي ان تفشل المفاوضات بين قادة الثورة والفرنسيين اذ كانت فرنسا متمسكة بانتدابها على سوريا فيما ظل سلطان الاطرش ورفاقه متمسكين بمبادىء الثورة الوطنية والقومية. وكان لا بد ازاء اصرار الفريقين على موقفيهما من العودة الى الحل العسكري بغية حسم الوضع السياسي واستعد الفريقان للمجابهة. وفيما كانت قيادة الثورة تعمل على الاحتفاظ بمواقعها وتحاول اشعال نيران الثورة في اماكن جديدة كان الفرنسيون يستقدمون الجيوش والمعدات العسكرية ويضعون الخطط القتالية لاخضاع الثوار واعادة سيطرتهم على سوريا. وفي ربيع العام ١٩٢٦ كان الفرنسيون قد استقدموا قوات هائلة من مستعمراتهم في شمال افريقيا ومن وراء البحار. ونجحوا في الوقت نفسه بتجنيد قوات جديدة من المناصرين لهم في الشرق وجلهم من الاقليات الطائفية وقد اشار احد قادة الجيش الفرنسي في الشرق بفاعلية هؤلاء المتطوعين(١٤).

ولم تتوقف الاعمال الحربية خلال فترة الاستعداد العسكري هذا ولكن المعارك الحاسمة بدات في ربيع العام ١٩٢٦ بعدما استكمل الفرنسيون استعدادهم العسكري لذلك.

وجرت اولى المعارك الحاسمة في بلدة مجدل شمس اي البلدة التي سبق ان قاومت الفرنسيين بشكل منقطع النظير ومكنت ثوارها من الانتصار على قوات الانتداب في غجر وخان ارنبه.

ولكن البلدة لم تستطع الصمود امام حملتين ضخمتين جردهما الفرنسيون على البلدة. وقد جاء في وصف هاتين الحملتين في احد المصادر الفرنسية وهو «الكتاب الذهبي لجيوش الشرق الاوسط» ان الحملة الاولى تألفت من اللواء الثالث من فيلق الرماة الافريقيين واللواء الثاني من فيلق الصباحيين مع سريتين من المدفعية. اما الحملة الثانية فقد تالفت بحسب المصدر نفسه من اللواء الاول من فيلق الرماة الافريقيين واللواء الاول والثالث من فيلق الرماة التونسيين يرافقها سرية من الدبابات وخمس كوكبات شركسية فضلا عن عدد من السيارات المجهزة بالمدافع الرشاشة.

لم يكن باستطاعة بلدة المجدل ذات الامكانات العسكرية المحدودة ان تصمد في وجه هذه الحملة الضخمة التي هاجمت البلدة من ثلاث جهات. ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا دخول البلدة الا بعدما دمروها بقنابل الطائرات والمدفعية وامتلات ساحة المعركة بالقتلى من الفريقين. وبعد ان قدمت هذه البلدة المجاهدة للثورة السورية اكثر من مئتي شهيد واضطر سكانها للنزوح الى منطقة اللجاء في حوران(١٥).

ولكن هذا الانتصار العسكري الذي حققه الفرنسيون في اقليم البلان شجعهم على شن هجوم ضخم على بلدة السويداء معقل الثورة الرئيسي واعدوا لهذه الغاية حملة ضخمة بلغ عددها اكثر من عشرة آلاف مقاتل مجهزين بكافة الاسلحة الحديثة التي يمتلكها جيش نظامي لاقوى دولة اوروبية.

ونجح الفرنسيون باحتلال قلعة السويداء ومن ثم تقدموا لاحتلال بقية المراكز الاساسية للثورة في جبل الدروز واضطر الثوار للتراجع امام ضغط الحملات الفرنسية الى واحة الازرق التي هي امتداد لمنطقة حوران ولكنها كانت تحت سلطة الانتداب البريطاني. واخذ سلطان الاطرش ورفاقه يقومون من هناك بعمليات محدودة ضد القوات الفرنسية. ولكن تلك العمليات اخذت تقلق بال السلطات الفرنسية فعقدت اتفاقا مع البريطانيين لاقصاء الثوار من تلك المنطقة وهكذا كان واضطر الثوار للجوء الى منطقة اللجا. الوعرة الحصينة. وانتقل الى هذا المعقل كبار قادة الثورة وعلى راسهم سلطان باشا الاطرش والامير عادل ارسلان

واستطاعت الثورة هناك ان تصمد اكثر من سنة في وجه الفرنسيين وذلك على رغم المساعدات الضئيلة التي كانت تتلقاها. ولكن صمود الثوار في هذا المعقل الاخير بدا يواجه فيما بعد صعوبات عديدة سياسية وعسكرية وتموينية. فلم تستطع تامين حاجاتها الاساسية في تلك البقعة الفقيرة وذلك في الوقت الذي تمكنت فيه السلطات الفرنسية من تركيز جميع قواها السياسية والعسكرية والمادية لحصار المنطقة. وفضلا عن ذلك فقد تمكن الفرنسيون من تجنيد بعض السكان المحليين من ذوي الخبرة بطبيعة المنطقة ليقاتلوا ضد الثوار، وجهزتهم في الوقت نفسه باقوى الاسلحة الحديثة من مدفعية وطائرات ومع ذلك لم تستطع القضاء نهائيا على معالم الثورة بل اضطر من بقي حيا من الثوار وعلى راسهم سلطان باشا الاطرش والامير عادل ارسلان للنزوح باتجاه منطقة الصفا ثم الى واحة الازرق واخيرا وجدوا طريقهم الى المنفى في صحارى نجد.

نتائج الثورة

وهكذا تمكنت سلطات الانتداب الفرنسي من اخماد تلك الثورة الوطنية التي تزعمها سلطان الاطرش ابتداء من انتفاضة الجبل وانتهاء ببقية الحركات الثورية التي نشبت في مختلف انحاء سوريا والتي تسمى الثورة السورية الكبرى.

صحيح ان سلطان الاطرش فشل في تحقيق اهداف الثورة الوطنية والقومية لنيل حرية واستقلال سوريا ولكن ثورته هذه اجبرت سلطات الانتداب على تحقيق بعض الاصلاحات في جهاز الادارة الفرنسية في سوريا ولبنان وادت الى انشاء مؤسسات دستورية فيهما. وساهمت الثورة في خلق تيار معارض لسياسة الانتداب في فرنسا نفسها كما ساهمت في خلق وعي قومي ووحدوي بين مختلف المناطق السورية نتيجة لاشتراك بعضها ولو بنسب متفاوتة في اعمال الثورة. وصحيح ان ثورة سلطان الاطرش بدات لاسباب محلية وكردة فعل لسياسة الانتداب الغاشمة في جبل الدروز ولكنها اصبحت ثورة سورية كبرى بعدما استجاب لاهدافها وانخرط في صفوفها ثوار وزعماء وطنيون من مختلف المناطق السورية. وكانت ثورة جبل الدروز بهذا المعنى امتدادا لسائر الانتفاضات الوطنية التي نشبت في سوريا في بدء عهد الانتداب ومنها ثورة الشيخ صالح العلي وابراهيم هنانو وكان الهدف المشترك لهذه الانتفاضات رفض الاستعمار الفرنسي بكافة اشكاله وتحقيق الوحدة ونيل الاستقلال.

الجزء الثاني والاخير من دراسة «بحثا عن سوريا غير مجزاة» ينشر في «السفير» عدد الثلاثاء المقبل.

مراجع

١ ـ ساطع الحصري. يوم ميسلون. صفحة من تاريخ العرب الحديث (بيروت ـ ١٩٤٧) ص ١١٨.

٢ ـ سلامه عبيد. الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ على ضوء وثائق لم تنشر (بيروت ـ دار الغد. ١٩٧١).

٣ ـ محي الدين السفرجلاني. تاريخ الثورة السورية (دمشق. دار اليقظة العربية. ١٩٦١) ص ١١٠.

٤ ـ عز الدين الحلبي. مذكرات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ (مخطوط) ص ١٠ ـ ١٢.

٥ ـ ابن سعيد. الثورة العربية الكبرى. ج ٣ . ص ٣٠٠ ـ ٣٠٣ كذلك راجع المقطم عدد (١١٠٨٦) (٢٠ آب ١٩٢٥).

٦ ـ N. Bouron , les druzes, histoire du liban et de la montagne hauranaise (paris 1930) PP 238 - 239.

٧ ـ عبيد. المصدر السابق. ص ١٢٦ وما بعدها.

٨ ـ عبد الرحمن الشهبندر. الثورة السورية الوطنية (مذكرات) (دمشق. ١٩٣٣) ص ٣٣.

٩ ـ نص البيان في كتاب السفرجلاني. تاريخ الثورة السورية. ص ١٥٣ ـ ١٥٥.

١٠ ـ سلامه عبيد. المصدر السابق. ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

١١ ـ منير الريس. الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي. الثورة السورية (بيروت. دار الطليعة . ١٩٦٩) ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

١٢ ـ السفرجلاني. المصدر السابق. ص ٣٢٢.

١٣ ـ الشهبندر. مذكرات. ص ٩٤ ـ ٩٥.

١٤ ـ الجنرال اندريا. ثورة الدروز وتمرد دمشق. ترجمة حافظ ابو مصلح (بيروت. ١٩٧١) ص ١٣٦.

١٥ ـ الكتاب الذهبي. ص ١٨٤.